تأثر النحو العربي الحديث بالبنيوية من خلال فكر تمام حسان التجديدي

د. أحمد لطف عبدالله قائد البريهي
الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية
بكلية التربية بالنادرة-جامعة إب

خلاصة

يحاول هذا البحث إثبات تأثر النحو العربي الحديث بالمنهج البنيوي من خلال فكر تمام حسان الذي جاءت قراءته مع قراءات كثيرة للتراث اللغوي العربي بصورة عامة، والتراث النحوي بصورة خاصة للغويين عرب انتظمت جهودهم في فحص الظاهرة اللغوية مستفيدين من مناهج، ونظريات الدراسات اللسانية الحديثة في الغرب.

وإن كل محاولات التجديد، ومنها محاولة حسان لا يُنظر إليها في سياق الاتهام والطعن في جهودهم، وإنما كان ذلك منهم بدافع الغيرة الإيجابية على هذا التراث العظيم، بعد أن أيقظت فيهم الدراسات اللسانية الاندهاش به والحافز لبعثه وتنقيته وتطويره.

وقد قام هذا البحث على أربعة محددات هي:

أولًا: تأثير البنيوية في منطلقات حسان

ثانيًا: تأثير البنيوية في نظرية القرائن

ثالثا: تأثير البنيوية في حصول المعنى

رابعًا: تأثير البنيوية في الحكم على نظرية العامل

حاول البحث أن يثبت تأثر فكر حسان النحوي في هذه المسارات الرئيسة بالبنيوية باتجاهاتها المختلفة، من خلال الجانب الإجرائي العملي في دراسات حسان اللغوية، متغافلا عن توظيف حسان للتراث اللغوي العربي في مساره الفكري، وتحديدا علم المعاني ليس استشهادًا، وإنما تقعيدًا، وتأطيرًا؛ إذ من الطبيعي أن يوظف التراث الذي عمل جاهدا لتجديد تراكيبه النحوية .

المقدمة

تهدف هذه الدراسة إلى معرفة صلة الدراسات النحوية العربية الحديثة بالمنهج البنيوي، وتأثر بعض الدارسين المحدثين بهذا المنهج، وتقبلهم لأفكاره، من خلال أنموذج أخذ حظه من الاهتمام في الدرس النحوي الحديث قبولا ورفضا، إنها تجربة تمام حسان من خلال فكره التجديدي لفهم تراكيب الجملة العربية، الذي قدمه مشروعا بديلا لدراسة النحو العربي في نظريته تضافر القرائن.

وقد حاول الباحث بيان هذه التجربة بمعرفة مدى تأثرها بالبنيوية، ولو في حدودها الدنيا، لكون البنيوية منهجا لسانيا غربيا اقتحم به حسان التراث اللغوي النحوي العربي؛ ليعيد قراءته بصورة غير مألوفة، وتزداد الإثارة بتعرضه لمسلمة تاريخية في الفكر النحوي العربي بحجم نظرية العامل ووسمها بأنها خرافة.

عرفت البنيوية بأنها: منهج نقدي حديث تكاد تكون ملامحه متكاملة، وله جسوره الممتدة بمناهج سابقة، وبعلوم مختلفة، كـ(الأنثروبولوجيا)، وعلم النفس، خاصة أن هذا المنهج قد امتلك أدوات التحليل اللساني العلمي.

وقد امتدت المدرسة البنيوية في أوروبا، ووصلت إلى أمريكا، وانضم تحتها كثير من العلماء، كـ(بلومفيلد)، (هاريس)، وتلميذه الأشهر في الجانب النظري (فريزر)، و(لادو) من العلماء التطبيقيين، (و(سكينر) الجامع بين علم اللغة، وعلم النفس[1].

وقد جد الدارسون العرب المحدثون أنفسهم بين هذه المناهج الجديدة، والتراث اللغوي العربي الذي مازال يمتلك عناصر النمو والتطور والفاعلية، فقرروا قراءته بالمناهج الحديثة التي اطلعوا عليها في الغرب؛ لكونها بدأت بالكليات التي تفضي إلى المشترك الإنساني بين اللغات، وبدأ التراث العربي من اللسان الخاص المقتصر على اللغة العربية، وكان المنهج البنيوي أول ما تصدر المشهد اللغوي منطلقا من اللغة وإليها، وليكون حسان أكثر إثارة بين هؤلاء الدارسين.

وليس لأحد أن ينكر ما قدمته الدراسات اللسانية للفكر اللغوي عامة والفكر اللغوي العربي خاصة، فقد حركت الجامد، وأعاد الدارسون العرب نظرهم البحثي فيه محللين ومقابلين، ووجدوا سبقا متفرقا في تراثهم لقضايا ومسائل كثيرة أثارها الدرس اللساني الحديث، و" صار الكثير منها اليوم من المسلمات التي لا ترد، فدخلت بذلك حيز البديهيات، واكتسبت أهميتها لا من أجل صحتها فحسب، بل لكثرة ما تفرع عليها من مبادئ جزئية أفاد منها الباحثون في شتى الميادين مما له علاقة بظواهر اللسان والتبليغ، سواء أكان في المستوى النظري أم التطبيقي "[2].

ولقد استمرت الإضافات على البنيوية من قبل المهتمين بها إلى أن تجاوزت البنيوية الصورية، "التي تعد النسق مغلقا على نفسه، إذا لم تتجاوز حدود البنى اللغوية، مما أدى إلى اعتناق اللسانيات الوظيفية التي لم تَزدرِ الظروف والملابسات المحيطة بالكلام، فالمقام هو الذي يفرض نمطا معينا من القول، فتكون الوظيفة بذلك قد احتوت السياق اللغوي، وسياق الموقف"[3].

---

[1] - ينظر: مبادئ النحو البنيوي دراسة تطبيقية على اللغة العربية ، يحي بعيطش، ص2، وينظر: اللسانيات العامة اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، نعمان بوقرة، ص 68، وما بعدها.

[2] - بحوث ودراسات في علوم اللسان، عبدالرحمن الحاج، ص 184.

[3] - الأسلوبية الوظيفية : من كتاب البيان في روائع القرآن لتمام حسان، بداش حنيفة، ص أ

وإذا كان النحو البنيوي أو الوصفي ثمرة المنهج الوصفي في الدراسات اللسانية الحديثة الذي جاء ردّ فعل على المنهج التاريخي والمقارن اللذين سادا الدراسات اللغوية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بصفة عامة، وثورة على المنهج المعياري الذي ساد الأنحاء القديمة بصفة خاصة[4]، فإن المتأثرين من النحويين العرب عمدوا إلى هذا المنهج مسايرة للفكر النهضوي الحديث، ورغبة في تجديد النحو العربي، من حيث إنه يقبل الوصف بطريقة أفضل من التي قدمه بها النحويون القدماء.

وقد انتظم هذا البحث في أربعة محددات رئيسة لتأثير البنيوية في الفكر النحوي العربي الحديث متخذا من فكر تمام حسان أنموذجا لذلك التأثير، مشيرا في بعض الأحيان إلى صلته بالتراث اللغوي والنحوي، الذي عمل على إعادة توجيهه مستفيدا من تأسيسات اللسانيات الحديثة، ويجسد طبيعة تلك العلاقة، وهذه المحددات ما يأتي: أولًا: تأثير البنيوية في منطلقات حسان، ثانيًا: تأثير البنيوية في نظرية القرائن، ثالثًا: تأثير البنيوية في حصول المعنى، رابعًا: تأثير البنيوية في الحكم على نظرية العامل.

أولا: تأثير البنيوية في منطلقات حسان

توجه تمام حسان في مقدمة كتابه: (اللغة العربية معناها ومبناها) بالنقد للدراسات اللغوية العربية، فهي لم يكتب لها أن تنمو فيما بعد القرن الخامس الهجري، واقتصرت الجهود بعد ذلك على التعليق، أو التحقيق والتصويب، وتبعه بنقد لمسار هذه الدراسات[5]. وهذا الذي ذكره هو من جملة توسلاته ومبرراته لإعادة النظر في كيفية دراسة النحو العربي، وتجاوز القصور والجمود في الدراسات النحوية القديمة.

والقارئ في البنيوية من جهة بما قامت عليه من مبادئ وأسس وقوانين، وفي فكر حسان اللغوي من جهة أخرى لا يصعب عليه البتة أن يجد التأثير الفاعل في منطلقات حسان التجديدية من خلال ثلاث مسارات بارزة، وهي:

أ/ **الأسس التي قامت عليها البنيوية.** فالبنيوية، كأيّ منهج من المناهج الحديثة، وكأي نظرية من النظريات قامت على مجموعة من الأسس وهي[6]:

1- عدّ اللغة ظاهرة اجتماعية تخضع للبحث العلمي المجرد، بعيدا عن المعطيات التاريخية والتأويلات الفلسفية والتعليلات.

2- الاعتماد على الوصف الواقعي الخالص للغة بعيدا عن الأفكار المسبقة، أو الأحكام القيمة.

3- دراسة اللغة في زمان ومكان محددين بصورة وصفية انطلاقا من مدونة لغوية مغلقة؛ لتكون هذه المدونة عينة تعمم نتائجها على مدونة مفتوحة.

4- دراسة اللغة في ذاتها، ومن أجل ذاتها، انطلاقا من بنيتها الداخلية، بعيدا عن الظروف الخارجية المحيطة بها.

5- الاعتماد على التقرير لما هو موجود، لا كما كان، أو يجب أن يكون.

---

4 - مبادئ النحو البنيوي: ص1-2.

5 - ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص 11، وما بعدها.

6 - ينظر: في اللسانيات ونحو النص، إبراهيم خليل، ص 14-20، وينظر: مبادئ النحو البنيوي، ص 5-6.

6- الاعتماد على المنطوق الذي يربط اللغة بمتكلميها؛ لأن اللغة نظام قائم بذاته، ذو وظيفة تبليغية تواصلية لا تمثيلية.

7- الاعتماد على التصنيف القائم على التقابل، فتصنيف اللغة إلى وحدات تحكمها القيم الخلافية، بدءًا من الوحدات الصوتية (فونيمات) إلى الصرفية (مورفيمات) المصنفة إلى فصائل مختلفة: (أفعال، وأسماء، وصفات، وأدوات)، وانتهاء بالوحدات التركيبية، أو الجملة التي تصنف هي الأخرى إلى أنماط تركيبية مختلفة.

وبالمقابل نجد حسان قد حدد الأسس التي ينبني عليها النظام النحوي للغة العربية، وهي على النحو الآتي[7]:

1- طائفة من المعاني النحوية العامة التي تسمى معاني الجمل أو الأساليب.

2- مجموعة من المعاني النحوية الخاصة، أو معاني الأبواب المفردة كالفاعلية والمفعولية.

3- مجموعة من العلاقات تربط بين المعاني الخاصة؛ لتكون صالحة لبيان المراد منها ،كعلاقة الإسناد وغيره من العلاقات.

4- ما يقدمه علماء الصوت والصرف لعلم النحو من قرائن صوتية وصرفية، كالحركات والحروف والتصريفات.

5- القيم الخلافية أو المقابلات بين أحد أفراد كل عنصر مما سبق وبقية أفراده.

فإذا أمعنا النظر بين أسس البنيوية، وأسس النحو العربي لحسان، علمنا مقدار توظيف المنهج البنيوي وتأثيره في نظرية تمام حسان التجديدية؛ فقد انطلق من اللغة نفسها، ودرس التركيب النحوي العربي –كما يتضح من مبادئها التي سار عليها- من وحداته الصغرى مستفيدا من الدراسات الصوتية والصرفية المنطلقة أساسا من اللغة، وكذلك علاقات هذه الوحدات ببعضها مكونة تركيبا مبينا لمراد المتكلم، وغيرها من القضايا المستفادة من المنهج البنيوي.

ولا يخفى معرفة تمام حسان المسبقة بالنحو العربي، والتراث اللغوي بصورة عامة، كعلم الصوت، وعلم الصرف، وعلم المعاني من جانب، والمنهج البنيوي من جانب آخر، وتضلعه بهما، ، فاستطاع بذلك أن يعرف مدى تقبل النحو العربي لكثير مما أفرزته البنيوية، ويسخر له ما يفيد من سائر فروع اللغة.

ب/ قوانين اللغة في البنيوية؛ فقد وضع (سوسير) قوانين اللغة، وعلى إثرها أثبت حسان النظام اللغوي للعربية. وتتمحور هذه المسألة في أن كل نص يطبق عليه هذا النظام يعد كيانا خاصا متراكبا من مجموع العلامات المشكلة، كبنية مستقلة في مجملها في الدلالة ومميزة، وهي الكلام عند (سوسير). والذي يحدد هذه الدلالة عند حسان هي القرائن؛ لأن كل علامة منها تستقل بأداء وظيفة معينة للمعنى، فهي صوتية وصرفية ونحوية وهكذا[8].

وبتأثير هذه القوانين اشترط حسان شرطين يرتضيهما المنهج الحديث في دراسة اللغة، وهذان الشرطان هما[9]:

---

[7] - ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص 178، وينظر: القرائن النحوية واطراح العامل والإعرابين التقديري والمحلي، تمام حسان، ص38.

[8] - ينظر: نظرية القرائن اللغوية عند تمام حسان، عبدالرحيم الكردي، ص 51-52.

[9] - ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص13-14.

الأول: تناول لهجة واحدة من لهجات لغة ما، مع عدم الخلط في دراستها بينها وبين لهجة أخرى من اللغة نفسها؛ لكي لا يخلط في دراسة المعنى على المستوى التحليلي الوصفي بين لهجة وأخرى، فكل واحدة تمثل نظاما متكاملا مستقلا من أنظمة الرمز العرفي بحيث ترمز كل علامة فيه إلى معنى معين.

الثاني: أن يُعنى في هذه الدراسة الوصفية بمرحلة زمنية واحدة من مراحل تطور هذه اللهجة؛ كي لا يفصل بين طورين مختلفين لنحو اللهجة الواحدة.

يشير تمام حسان بهذا إلى طريقة دراسة اللهجات العربية حينما وضعت ولم تراع هذين الشرطين، فقد تناولوا تلك اللهجات مجتمعة بشرطيها الجغرافي والزمني، وأخذها من قبائل محددة، لكنها في الوقت نفسه متسعة، والذي خلص إليه أن دراستهم النحوية كانت تحليلية لا تركيبية، تُعنى بمكونات التركيب أكثر من التركيب نفسه، فأهملوا –كما يقول- المعاني التركيبية والمباني الدالة عليها، واستدل بالإسناد من حيث معناه باعتباره وظيفة، ثم باعتباره علاقة، ثم تفصيل القول في تقسيمه إلى: إسناد خبري، وإسناد إنشائي، وإسناد الخبري إلى: مثبت ومنفي ومؤكد، وتقسيم.

ج/ السياق، هذه النظرية التي أسهمت في رفد الفكر التجديدي لدى حسان، وهي وجهة لسانية بنيوية، اقتفى فيها أثر أستاذه (فيرث ت 1960م)، الذي كان له فضل إخراجها نظرية لغوية متكاملة، حاولت الكشف عن العوامل التي تؤثر في عملية إنتاج الدلالة.

وقد أقام فيرث منهجا تحليليا تكاملت به نظرية السياق، وذلك باعتماده كل تحليل لغوي على السياق أو المقام context of situation ، وما يتصل به من ملابسات أو ظروف، وأوجب تحليل الكلام إلى عناصره ووحداته المكونة له، وكشف العلاقات الداخلية للوصول إلى المعنى المتصل بالمستويات التحليلية المختلفة: الصوتية، والصرفية، والدلالية، والنحوية ، وقسم السياق إلى داخلي، وخارجي؛ يتمثل الأول بالعلاقات الشكلية اللغوية، ويتمثل الثاني بكل ما هو خارج اللغة[10] .

وفي ما يتعلق بالسياق اللغوي أضاف فيرث إلى عناصر تحليل السياق ما يعرف باسم الرصف أو النظم collocation[11]، ويعني به ارتباط كلمة بكلمات أخرى معينة في لغة من اللغات، أو استعمال كلمتين مستقلتين عن بعضهما في المعنى المعجمي، لكنهما يرتبطان ارتباطا تلازميا، كارتباط كلمة (منصهر) ببعض المعادن، كالحديد والنحاس، والذهب والفضة [12].

وقد استفاد حسان من هذه النظرية بمعالجة التعليق النحوي العربي، مضيفًا إليه ما أفاده من الجرجاني في ما تناوله لسياق الحال، وسياق المقال[13]، وظهر تأثر حسان بنظرية السياق جليا في مؤلفاته، فقد شرح مصطلح " سياق الموقف " عند " فيرث " أو ما أسماه " الماجريات " [14] .

---

[10] - ينظر: العربية وعلم اللغة البنيوي، حلمي خليل، 133، وينظر: السياق وإنتاج الدلالة (نماذج من النظريات اللسانية الغربية)،عزة شبل، ص721-722.

[11] ينظر: دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث- دراسة تحليلية للوظائف الصوتية والبنيوية والتركيبية في ضوء نظرية السياق، عبد الفتاح عبد العليم البركاوي، ص15

[12] - ينظر: علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص74.

13 - نظرية القرائن في التحليل اللغوي، خالد بن عبد الكريم بسندي، ص 42.

[14] - ينظر: مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ص251

ثانيًا: تأثير البنيوية في نظرية القرائن وتوليفها

إن البنية اللغوية للنص حاضرة في نظرية القرائن، وعليه تدور فكرتها، التي تناولت ارتباط الكلمات ببعضها، سواء أكان ذلك في الجملة، أم كان في السياق. والذي يرجح معنى آخر هو وجود قرينة دالة على المعنى المقصود لفظية كانت أم معنوية.

أراد حسان إيضاح المعنى الواحد المتمثل أساسا في تفكيك بنية الإسناد، وبيان علاقات الكلمات فيه كمهمة من مهمات الإعراب كما هو معروف في النحو العربي. وهنا يتعدى مفهوم القرائن مجرد الاهتمام بالعامل، ومدى أثره في تحديد العلامات الإعرابية لمباني مكونات الإسناد إلى التعامل مع مجموعة من المعطيات الأخرى بما فيها القرائن المعنوية والقرائن اللفظية[15].

ويمكن أن تدخل القرائن اللفظية والمعنوية في إطار ما يعرف بـ: (المورفيمات)، و (الصرفيات) بأنواعها الثلاثة؛ لأنها عبارة عن معان وظيفية نحوية صرفية ناتجة عن توزيع (المورفيمات) وفق علاقة تركيبية . وأنواع (المورفيمات) هي: المورفيم الصفري، والمورفيم المقيد، والمورفيم الحر. وتقوم بثلاث وظائف: التحديد والتصنيف والتوزيع. فنحو جملة (ضرب زيد عمرا) يجد أن القرائن اللفظية والمعنوية تتحقق من خلال صرفيات الصيغة والإعراب والبناء والرتبة والإسناد وغيرها وهي تقوم بوظيفة لغوية واحدة[16].

وقد بين حسان الغاية التي تسعى إليها دراسة النحو، وتتمثل بالنظر في العلاقات؛ لنفهم بها النص، ولا يمكن النظر إليها إلا من خلال القرائن بنوعيها المعنوي واللفظي[17]. وتتفرع كل واحدة منهما إلى فروع مختلفة، فالقرائن اللفظية تتفرع إلى: العلامة الإعرابية، والرتبة، والصيغة، والمطابقة، والربط، والتضام، والأداة **[18]**. وتتفرع القرائن المعنوية إلى: الإسناد، والتخصيص، والتبعية، والنسبة، والمخالفة[19].

لكن اللافت فيما ذكره حسان في علاقة التضام استشهاده لحذف الفعل إذا دلت عليه القرينة بالتفسير بقوله تعالى: " إذا السماء انشقت" في مسألة خلافية تخالف المنهج الوصفي الذي اختاره، وغيرها من مسائل الحذف التي ناقشها في هذا المقام، وفي مقامات أخرى مسلما بالمسألة، وجعله قرينة عدمية تحت التلازم، وفرعها إلى الاستتار، والحذف[20]. وهذا يدل على أن حسان لم يخرج عن معيارية القدماء بصورة كاملة.

ومن مجموع القرائن اللفظية والمعنوية حاول حسان أن يزيح كل ما علق بالفكر النحوي من تخمين وتعليل، وحدس، مما حققه المنهج البنيوي، ليعتمد العلاقات القائمة في البنى النحوية، التي استقرت عنده بمصطلح التعليق الذي قال به الجرجاني، قاصدا بذلك العلاقات المعنوية، كعلاقات الإسناد

---

[15] - ينظر: نظرية القرائن في التحليل اللغوي، خالد بسندي، ص 40

16 - ينظر: العربية وعلم اللغة البنيوي، حلمي خليل، ص 232.

17 - ينظر القرائن النحوية: ص 38.

[18] - ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص205-225

[19] - ينظر: نظرية تضافر القرائن، ص31، ونظام الارتباط والربط، مصطفى حميدة، ص 164. وينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص204، وينظر: وظاهرة الإعراب في النحو العربي، أحمد سليمان ياقوت، ص85، ومباحث التخصيص عند الأصوليين والنحاة، محمد سعد، ص 13. وينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص 204، وما بعدها.

[20] - ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص 218- 219.

والتخصيص والنسبة والتبعية، والعلاقات اللفظية الشكلية، كالعلامة الإعرابية، والرابط، والمطابقة، والصيغة، والرتبة، والأداة، والنغمة[21].

وجد حسان ضالته في علم المعاني من علوم البلاغة العربية؛ ليكمل به ما استقاه من المنهج البنيوي، في تحقيق طموحه التجديدي، فرأى أن النحو العربي أحوج ما يكون إلى أن يدعي لنفسه هذا العلم من علوم البلاغة، بل يحسن عنده أن يكون قمة الدراسات النحوية أو فلسفتها، وأن ما قام به الجرجاني في دلائل الإعجاز من دراسة النظم وما يتصل به من أكبر جهود الثقافة العربية قيمة في سبيل إيضاح المعنى الوظيفي في السياق أو التركيب، وأنها تقف كتفا إلى كتف مع إحدى النظريات اللغوية في الغرب وتفوق معظمها في مجال فهم طرق التركيب اللغوي[22].

لم يكن ربط حسان بين البنيوية ونظرية النظم للجرجاني من قبيل الاختيار العشوائي، أو الصدفة المحضة، فثمة رؤى مشتركة بينهما جسدها حسان في نظريته، وهذه الرؤى المشتركة دفعت أحد الباحثين بحكم أسبقية عبد القاهر إلى القول بأن "البنيوية اسم حديث نسبيا لطروحات قديمة بدأها الإمام عبد القاهر الجرجاني(تـ471) في ما يسمى بنظرية النظم التي تناولها بالتفصيل في كتابه: دلائل الإعجاز ثم أعاد طرحها بشكل أو بآخر (دي سوسير) تحت اسم (البنيوية)"[23] .

إنه ينظر إلى ما ذهب إليه الجرجاني في دلائل الإعجاز على أنها أذكى محاولة لتفسير العلاقات السياقية في تاريخ التراث العربي، وذكر له أربع مصطلحات: (النظم، والبناء، والترتيب، والتعليق)، وأخطرها لديه هو التعليق. وقصد به إنشاء العلاقات بين المعاني النحوية بواسطة ما يسمى بالقرائن اللفظية والمعنوية والحالية. فالتعليق هو الفكرة المركزية في النحو العربي[24].

ثالثًا/ تأثير البنيوية في حصول المعنى

إذا كانت البنيوية قد عرف عنها أنها اهتمت بالشكل اللغوي، من خلال العلاقات بين الوحدات اللغوية المكونة له، فإن اتجاهاتها المختلفة والإضافات التي أضيفت إليها من قبل أتباعها قد أفسحت فيها مكانا للاهتمام بالمعنى، فاستفاد حسان من امتدادات البنيوية، واختلاف وجهات النظر لدارسيها من نتاج معرفي لساني. وكان تركيزه على المعاني القصدية، وهذا النتاج اللساني إنما هو "تيار جديد ظهر في السنوات الأخيرة يريد أصحابه أن تكسر الحواجز بين الدراسات النحوية والدراسات الدلالية بدراسة اللسان في أثناء تحققه، وعلاقته بالمتكلمين المستعملين له، وهكذا يصبح النحو إيذانا بخروج اللفظ من المخزون المعجمي إلى الأداء التداولي"[25].

لذلك رأى حسان -من حيث المبدأ- أن الغاية التي يسعى إليها الناظر في النص هي فهم النص والوسيلة لذلك هي النظر في العلامات المنطوقة، أو المكتوبة[26]، ولكي يصل إلى هذه الغاية فقد أشار إلى أن البلاغة العربية قدمت لدراسة المعنى الاجتماعي، أو المعنى الدلالي فكرتين تعتبران اليوم من أنبل ما وصل إليه علم اللغة الحديث في هذا المجال وهي فكرة: (المقام والمقال)، وأن استقبال

[21] - ينظر: المصدر السابق: ص17.
[22] - ينظر المصدر نفسه، ص 18.
[23] - النحو العربي ودوره في تدريس اللغة العربية وفهم نظامها، علي مدكور، ص9.
[24] - ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص186- 189.
[25] - الأسلوبية الوظيفية في البيان، ص1.
[26] - ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ص 191.

المعنى من المقال – فحسب - إغفال معيب لأهم عنصر من عناصر المعنى، وهو المقام. وهذا يظهر من قول العرب: لكل مقام مقال[27]. وأما المقال فقد روي عن العرب قولهم: (لكل كلمة مع صاحبتها مقام)، فهي تلخيص لظاهرة التضام في العربية، والمعنى اللغوي الدلالي الاجتماعي[28].

إن المعنى الوظيفي في نظره هو الثمرة الطبيعية لنجاح عملية (التعليق)؛ لأن المعنى الوظيفي إذا اتضح أمكن إعراب الجملة دون أن نرجع إلى المعجم أو المقام[29]. ومن الباحثين من يجزم بأن حسان مثل (فيرث) يجعل المعنى غاية الدراسة اللغوية[30]. ويرى آخر أنه تبنى منهجا توليفيا بين الوصفية والوظيفية الجديدة التي هيكل أسسها وفعلها إجرائيا أحمد المتوكل[31].

ولكي تتضح الصورة أكثر فقد ضرب مثلا ببيت من الشعر صنعه من ألفاظ لا تحمل معنى معجمي على الرغم من تكونه من حروف عربية، محافظا على إدغام ما تماثل أو تقارب، وعلى المباني الصرفية والعلاقات النحوية، وهو:

قاص التَجِينُ شِحالَه بِتَرِيسهِ ال فاخي فَلَم يَسْتِف بطاسيةِ البَرَنْ

وبعد أن أعرب البيت إعرابا كاملا بين كيف أن المعنى الوظيفي يحدد الفهم صوتيا من حيث إن الحرف مقابل استبدالي، وصرفيا من حيث إن المبنى إطار شكلي يتحقق بالعلامة، ونحويا من حيث إن العلامة السياقية تكشف لنا عن ترابط المباني التي تحققت بالعلامات في سياق النص. يصل بذلك إلى إثبات أن المعنى الدلالي وهو معنى الكلمة المفردة، أو معنى المقام، فلا يتوصل إليه بواسطة المبنى فقط[32].

ولكي يكون المعنى مفهوما من الناحية الاجتماعية، فقد دعت الحاجة إلى تشقيق المعنى إلى ثلاثة معان: الأول: المعنى الوظيفي؛ أي: وظيفة الجزء التحليلي في النظام أو في السياق على حد سواء. والثاني: المعنى المعجمي للكلمة. والثالث: المعنى الاجتماعي (المقام)[33].

إن حسان يقر أن هذا التقسيم هو ما أسهمت به الدراسات اللغوية الحديثة للكشف عن المعنى اللغوي، وأنه سيحاول تطبيقه على اللغة العربية الفصحى، مع تسليط الضوء على النتائج الباهرة التي توصل إليها علماؤنا الأقدمون في الكشف عن المعنى، معترفا بالفضل لسيبويه والجرجاني، الأول في التحليل، والثاني في التركيب[34].

رابعًا: تأثير البنيوية في الحكم على نظرية العامل

النحو البنيوي أو الوصفي هو ثمرة ما عرف بالمنهج الوصفي في الدراسات اللسانية الحديثة[35]، فإذا كانت البنيوية أتت لدراسة اللغة في بنيتها وشكلها الظاهري، فإن " النحو البنيوي نحو شكلي

---

[27] - ينظر: المصدر نفسه، ص 20.
[28] - ينظر: المصدر نفسه، ص 182.
[29] - ينظر: المصدر نفسه، ص 182.
[30] - ينظر: النظام اللغوي بين الشكل والمعنى، محمد صلاح الدين، حوليات الجامعة التونسية، ص 200.
[31] - ينظر: مناهج الدرس النحوي في العالم العربي في القرن العشرين، عطا موسى، ص33.
[32] - المصدر السابق، ص184.
[33] - ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص 29.
[34] - ينظر: المصدر نفسه، ص 29.
[35] - ينظر: مبادئ النحو البنيوي: ص3.

صوري، ينظر إلى الصور اللفظية المختلفة التي تعرضها لغة من اللغات، بحيث يصف العلاقات الناشئة بين الكلمات في الجملة وصفا موضوعيا، ثم يصنفها على أسس معينة:[36].

وقد بدأت البنيوية الاتجاه العلمي لدراسة اللغة، فأفسحت مجالا لدراسة المدلولات التركيبية في المنظومة اللغوية من الوجهة النحوية[37]، ودراسة العلاقات بين الدوال المكونة للوحدة اللغوية. ومن ثم وجد بعض الباحثين العرب، منهم تمام حسان بغيتهم فيها عن طريق الاحتكاك المباشر بالاطلاع على نتاجاتها التأسيسية، والإفادة منها في إعادة قراءة التراث النحوي العربي .

ومن المفاهيم التي جاء بها (سوسير) لوصف علاقات الكلمات المكونة للجمل مفهوم العلاقات المركبية (Les rapports syntagmatique)، الذي يقابل العلاقات الجدولية (Les rapports paradgmatique)، والعلاقات المركبية تعني العلاقة التي تربط عنصر بعنصر آخر يجاوره؛ أي: السلسلة الأفقية للجملة"[38].

وفي هذا السياق عدّ (سوسير) الجملة نمطا رئيسا للتضام (Syntagma)، ويتألف هذا التضام من وحدتين لغويتين فأكثر[39]. ولم يقتصر على علاقات الكلمات في الجمل؛ بل تجاوزها لتشمل نصا كاملا بما فيه من كلمات، وعبارات، ووحدات لغوية أخرى نتيجة وجودها معا في تعاقب معين[40].

وهذه العلاقات تعتمد وصف السلسلة الأفقية للوحدات اللغوية، وعليه فالنحو من وجهة نظر البنيوية ظاهريا، يتناول ظاهر الجملة، ولا يلجأ إلى القياس، أو التعليل، أو التقدير والتأويل؛ لأنها عند الوصفيين ظنية، تعتمد التقدير الشخصي، وتجانب معطيات المنهج العلمي الموضوعي[41].

وهذه الوجهة اعتمدها حسان لتأسيس منهج جديد في إعادة قراءة التراث النحوي العربي، راسمًا من خلاله الحدود التي يتحرك فيها هذا المنهج، ونافيًا سمة العلمية عنه إذا تعداها، إذ يقول: " كل منهج علمي من مناهج البحث في الوقت الحاضر عليه أن يُعنى أولًا وأخيًرا بالإجابة عن(كيف) تتم هذه الظاهرة أو تلك، فإذا تعدّى هذا النوع من الإجابة إلى محاولة الإجابة عن(لماذا) تتم هذه الظاهرة أو تلك لم يعد هذا منهجًا علميًا؛ بل لا مفرّ من وصفه بالحدس والتخمين"[42].

فكما يرفض المنهج البنيوي الحدس والتخمين صرح حسان بأن السؤال بـ(لماذا) لا يعنيه؛ لأنه يعتمد على الحدس والتخمين. وفي سبيل هذه الفكرة عرض حسان لنص لا معنى لكلماته، ولكنها مصوغة على شروط اللغة العربية، وهو" حَنْكَفَ المستعصُ بقاحته في الكحظ فعنّذ التران تعنيذا خسيلا ، فلما اصطف التران ، وتحنكفَ شقله المستعصّ بحشله فانحكز سُحيْلا سُحيْلا حتى خزب"

---

[36] - نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، نهاد الموسى، ص28.

[37] - ينظر: الأسلوبية الوظيفية وموقعها من كتاب البيان في روائع القرآن لتمام حسان، بداش حنيفة، ص أ ، وينظر: البنيوية في اللسانيات، محمد الحناش، ص184.

[38] - الجملة بين النحو العربي واللسانيات: ص34.

[39] - ينظر: مدخل إلى دراسة الجملة العربية، محمود أحمد نحلة، ص11.

[40] - ينظر: معجم اللسانيات الحديث، سامي عياد حنا وآخرون، ص38.

[41] - ينظر: مبادئ النحو البنيوي: ص5.

[42] - اللغة بين المعيارية والوصفية، تمام حسان، ص 42 .

ثم قال بعد ذلك :"لكأني بالقارئ الآن قد بدأ في إعراب هذا النص ، وكأني أسمعه يقول: حنكف فعل ماض ، والمستعص فاعل ، وبقاحته جار ومجرور متعلق بحنكف، إلى أن يتم الإعراب الصحيح"[43]

يرى حسان أن "على عالم اللغة الوصفي أن يقصر نشاطه على الملاحظة والوصف والتسجيل، وأن العامل النحوي، وما أثار من ضجيج إنما هو مبالغة بسبب النظرة السطحية، وتأثير الأقدمين من النحاة، ودعا إلى ترك المنطق الأرسطي في النحو ورفض التعليل، فالقرائن عنده كفيلة بإيضاح المراد بدلا عن العامل"[44].

إنه يرى أن فهم القرائن المقالية تغني عن فكرة العامل النحوي، وأن هذا الفهم سيعوض قصور العلامات الإعرابية عن تفسير المعاني النحوية، وهي قرينة إعرابية واحدة توجه إليها النحاة، وجاءوا بفكرة العامل. فالقرائن في نظره هي البديل؛ فهي لا تعطي العلامة الإعرابية من الاهتمام أكثر مما تعطيه لأية قرينة أخرى[45].

لكني أستطيع القول إن لموقف حسان من العامل امتداد في التراث العربي، وليس خالصا لتأثره بالمنهج الوصفي الحديث، فقد سبقه ابن مضاء الذي أنكر العامل من القدماء، ومن المحدثين إبراهيم مصطفى. وقد وجد في المناهج الحديثة ما يسد به تعليلات وبدائل تقوم مقام العامل، أما من جاء قبله، وذهب هذا المذهب، فقد أنكر العامل ولم يعط بديلا له.

فقد أراد حسان أن يوظف ما فهمه من التراث في عده العامل، أو العلامات الإعرابية قرينة من القرائن، وأنه قد قال به قامة كبيرة بقدر عبد القاهر الجرجاني، إذ يقول: "وفي رأيي - كما في رأي عبد القاهر على أقوى احتمال – أن التعليق هو الفكرة المركزية في النحو العربي، وأن فهم التعليق على وجه كافٍ وحده للقضاء على خرافة العمل النحوي"[46].

إن حسان أعمل فكره الاستنباطي في توجيه فكر الجرجاني ومقاصده في دلائل الإعجاز، مما جعله يحمله ما لا يحتمل، من غير نص واضح من الجرجاني يؤيد ذلك الاستنباط، فالحقيقة أن الجرجاني لم ينكر العامل، ولم يقل بعدم جدواه، وليس من المقبول تقزيم دور العامل على لسان الجرجاني، والدليل عليه قول الجرجاني: "لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم أفرادًا ومجردة من معاني النحو، فلا يقوم في وهم، ولا يصح في عقل أن يتفكر متفكر في معنى فعل من غير أن يريد إعماله في اسم، ولا أن يتفكر في معنى اسم من غير أن يريد إعمال فعل فيه، وجعله فاعلا له أو مفعولا.."[47].

إن ما يبدو للباحث هو أن موقف حسان هذا لا يفسره إلا ما حاولنا إثباته في هذا البحث وهو تشبثه بالتراث إلى درجة التأصيل لما توصل إليه فكره في إخراج نظرية القرائن مستفيدا من الدراسات البنيوية الغربية من التراث اللغوي العربي.

---

[43] - مناهج البحث في اللغة ، تمام حسان ، ص 193 . وينظر: اتجاهات البحث في قضية الإعراب عند اللغويين العرب المحدثين ، خالد الحجيلان، الرياض، جامعة الملك سعود، 1419هـ،ص 201 . وينظر: نظرية القرائن، خالد بسندي، ص41.

[44] - اللغة العربية معناها ومبناها، ص 232، وينظر: نظرية تضافر القرائن بين التراث واللسانيات الحديثة، ص23.

[45] - ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص231-232، وينظر: نظرة في قرينة الإعراب في الدراسات النحوية القديمة والحديثة، محمد صلاح الدين، ص 47-49.

[46] - اللغة العربية معناها ومبناها، ص 232.

[47] - دلائل الإعجاز، ص118.

كما أن آراء حسان اللسانية تمثل "صورة واضحة المعالم لالتقاء الفكر اللساني العربي الأصيل، وهذا المنهج الغربي الحديث في محاولة توفيقية ناقدة لمنهجي النحاة العرب القدماء، واللسانيين البنيويين منهم بشكل خاص، قصد التأسيس لنظرية نحوية عربية حديثة"[48] .

والذي يؤكد ما سبق بناء تمام حسان نظريته –كما قلنا- على أساسين متينين هما : التراث اللغوي العربي، والنتاج اللساني الحديث، وقد حدد زاويته التراثية في كتاب سيبويه، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني. وحملت هذه الدراسة على عاتقها معرفة الجوانب الخاصة بهذين الأساسين اللذين تأثر بهما تمام حسان؛ لمعرفة جوانب التأثير في نظريته.

النتائج

1- تأثرت الدراسات النحوية العربية الحديثة بالمنهاهج الغربية الحديثة، كما ظهر من خلال أنموذج فكر تمام حسان االتجديدي المتأثر بالمنهج البنيوي، ورفضه لنظرية العامل العربية، وعمل هذا المنهج على بلورة فكره النحوي، وطريقة نظره فيه؛ فالمنهج الحديث يقوم على دراسة اللغة لذاتها، ويستبعد كل ما كان خارجها، وبهذا صار منهجا علميا.

2- نظرية القرائن نظرية توليفية جمعت بين استفادتها من المناهج الحديثة وتحديدا المنهج البنيوي في اتجاهاته المختلفة، والتراث اللغوي العربي وتحديدا علم المعاني، فمثلت بذلك نظرة تجديدية للنظر في التراكيب النحوية في العربية.

3- لم ينسلخ تمام حسان بفكره التجديدي عن الموروث اللغوي العربي، بل أصل لتوجهاته في كل مساراتها من نتاج العلماء الأقدمين وخاصة سيبويه، والجرجاني، كما صرح بذلك في أكثر من مقام.

4- حاول حسان إثبات عدم كفاية نظرية العامل لكشف المعاني النحوية بشمولية، وقدمها في صورة لم تزد عن كونها قرينة من جملة قرائن أخرى كثيرة تعمل معها لتؤدي هذا الغرض.

5- إن تحديد تمام حسان ما كان ينبغي للنحاة فعله – حسب رأيي – هو تجنٍّ عليهم، فالمنهجية العلمية تقتضي ألا يحاكمهم إلى إفرازات النظريات والمناهج الحديثة التي وصلوا إليها بعد تراكم معرفي طويل، خاصة أن حسان أدخل إلى النحو مبادئ علوم أخرى لم يعملها الأقدمون، واستعان بمناهج لم تكن في متناول الأقدمين، ولم يكن له أن يصل إليها إلا بعد أن أفرزتها الدراسات الغربية الحديثة.

[48] - نظام الجملة في شعر المعلقات، محمود أحمد نحلة، ص80.

ثبت بالمصادر والمراجع

1- اتجاهات البحث في قضية الإعراب عند اللغويين العرب المحدثين ، خالد الحجيلان، الرياض، جامعة الملك سعود، 1419هـ.
2- بحوث ودراسات في علوم اللسان، عبدالرحمن الحاج، ط1، موفم للنشر، الجزائر، 2007م.
3- البنيوية في اللسانيات، محمد الحناش، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1980.
4- البيان في روائع القرآن دراسة لغوية أسلوبية ، د. تمام حسان، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 1993م.
5- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح/ محمد الداية، وفايز الداية، دار قتيبة، دمشق، 1983م.
6- دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث- دراسة تحليلية للوظائف الصوتية والبنيوية والتركيبية في ضوء نظرية السياق، عبد الفتاح عبد العليم البركاوي، دار المنار- القاهرة،1991م،
7- ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقاتها في القرآن الكريم، د. أحمد سليمان ياقوت، ط1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994م.
8- العربية وعلم اللغة البنيوي دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،1988 م .
9- علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ط3، عالم الكتب، القاهرة، 1992م،
10- في اللسانيات ونحو النص، إبراهيم خليل، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط1، 2007م.
11- اللسانيات العامة اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، د. نعمان بوقرة، ط1، عالم الكتب الحديث، 2009م.
12- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء- المغرب، 1994م.
13- مباحث التخصيص عند الأصوليين والنحاة، محمد سعد، ط1، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1988م.
14- مبادئ النحو البنيوي دراسة تطبيقية على اللغة العربية، د. يحي بعيطش، جامعة قسنطينة- الجزائر، رابط umc.edu.dz/vf/images/revue-langue/11%20%20.pdf
15- مدخل إلى دراسة الجملة العربية، محمود أحمد نحلة، ط1، بيروت، دار النهضة العربية، 1988م.
16- معجم اللسانيات الحديث، سامي عياد حنا وآخرون، مكتبة لبنان، 1997م.
17- مناهج الدرس النحوي في العالم العربي في القرن العشرين، د. عطا موسى، ط1، دار الإسراء- الأردن، 2002م.
18- مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1974م.

19- النحو العربي ودوره في تدريس اللغة العربية وفهم نظامها، علي مدكور، 2004م، رابط www.majma.org.jo/majma/index.php/2009-02-10-09.../248-22-4.html
20- نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، مصطفى حميدة، ط1، الشركة المصرية العالمية، لونجمان، 1997م.
21- نظام الجملة في شعر المعلقات، محمود أحمد نحلة، دار المعارف الجامعية، الإسكندرية، 1991م.
22- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، نهاد الموسى، مكتبة وسام، عمان، 1987م.

الرسائل العلمية

1- الأسلوبية الوظيفية وموقعها من كتاب البيان في روائع القرآن لتمام حسان، رسالة ماجستير في الأدب العربي، بداش حنيفة، جامعة منتوري، قسنطينة – الجزائر، 2008م.

2- الجملة بين النحو العربي واللسانيات المعاصرة (مفهومها وبنيتها)، رسالة ماجستير، وداد ميهوبي، جامعة الحاج لخضر، الجزائر، 2009 -2010م.

المجلات والدوريات

1- السياق وإنتاج الدلالة (نماذج من النظريات اللسانية الغربية)،عزة شبل، الندوة الدولية قضايا المنهج في الدراسات اللغوية والأدبية النظرية والتطبيق (بحوث محكمة)، جامعة الملك سعود، 1431هـ - 2010م.

2- القرائن النحوية واطراح العامل والإعرابين التقديري والمحلي، تمام حسان، مجلة اللسان العربي، الرباط، مج 11، 1974م .

3- النظام اللغوي بين الشكل والمعنى، محمد صلاح الدين، حوليات الجامعة التونسية، ص 200.

4- نظرة في قرينة الإعراب في الدراسات النحوية القديمة والحديثة، محمد صلاح الدين بكر، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الخامسة، الرسالة العشرون، 1984م.

5- نظرية تضافر القرائن بين التراث واللسانيات الحديثة، د. نعمان بوقرة، علوم اللغة، مصر، مج12، ع3، 2009م.

6- نظرية القرائن اللغوية عند تمام حسان، عبدالرحيم الكردي، كتابات- مصر، ع2، 2011م.

7- نظرية القرائن في التحليل اللغوي، خالد بن عبد الكريم بسندي، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، المجلد4 العدد 2، 2007.